نصوص عصام الشريف ما بين الومضة القصصية والقصة القصيرة جدا

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر

سأتناول في هذه الدراسة ثلاثة نصوص قصصية للكاتب المصري عصام الشريف، وهي نصوص نشرت في مجموعة سنا الومضة القصصية، وسأتناولها من زاوية كونها ومضات قصصية أم قصصا قصيرة جدا. وسأبدأ بنص "تقاعس":

":واحد من هؤلاء دليل براءتي"، وأشار للجميع.. المنصة ...وفي القاعة، وعندما التقت عينانا صاح: "أنت؟"....!

ومضة تجسد الضعف الإنساني الذي يعتري شخصية الراوي. في الومضة شخصيتان بارزتان: شخصية رئيسية متمثلة في المتهم وشخصية أقل منها بروزا على مستوى

الحدث وهي شخصية الراوي، وإن كان الدور المطلوب منها أكبر بكثير من دور الشخصية الرئيسية. وغياب هذا الدور يتجسد في التقاعس الذي يبرزه عنوان الومضة.

يلعب الحوار دورا كاشفا في هذه الومضة، وهو حوار وارد على لسان شخصية واحدة وهي شخصية المتهم. وكون الومضة مروية بالزمن الماضي يدل على أن الراوي كان غائبا أيضا عن الحوار أثناء زمن الحدث في الماضي داخل قاعة المحكمة، الأمر الذي يؤكد - على مستوى السرد - تقاعسه على مستوى الحدث.

من الواضح أن المتهم يدرك أن دليل براءته موجود داخل قاعة المحكمة، وإشارته للجميع بما في ذلك القضاة الموجودون على المنصة تمثل اتهاما للجميع بشكل غير مباشر. وأقول غير مباشر لأن المتهم الفعلي متمثل في الراوي بشخصه وبفعله المباشر السابق على الحدث في الومضة، سواء أكان هذا الفعل متمثلا في حضور هذا الراوي في مكان الجريمة أو الجنحة أم في قيامه شخصيا

بهذه الجنحة أو الجريمة. واستخدام المتهم لصيغة الاستفهام وصيغة التعجب الماثلتين في علامة الاستفهام وعلامة التعجب اللتين يستعملها الراوي تعويضا كتابيا عن نبرة صوت المتهم - يدل هذا الاستخدام على أن المتهم يستنكر سلوك الراوي ويتعجب منه ويدينه في الوقت ذاته.

المدى الزمني في هذه الومضة لا يتعدى لحظات، وهي اللحظات الكافية لتجول عين الشخصية في القاعة والتقائها بعين الراوي. ولو لم تقترن إشارة الشخصية بحركة عينها وتم ذكر "هؤلاء" الذين ينتمي إليهم الراوي، كان لهذه الومضة أن تتحول إلى قصة قصيرة جدا، فالومضة القصصية كما يدل اسمها تعني بتسليط الضوء على لحظة واحدة كاشفة ودالة في حياة الشخصية.

وهذه الومضة مروية من خلال الزمن الماضي الذي يدل على انقضاء الحدث وانتهائه قبل البدء في عملية السرد بفترة ما، ولا يهمنا إن كانت طويلة أم قصيرة، فالمهم هو زمن الحدث ذاته. والمسافة الزمنية الفاصلة بين انتهاء

الحدث والقيام بسرده ذات أهمية هنا في سياق الومضة ومضمونها، فمن الواضح أن الراوي الذي يقوم الآن بسرد ذلك الحدث الماضي يشعر بالذنب تجاه الشخصية، وكأن سرده لهذا الحدث اعتراف منه بتقصيره أو "تقاعسه"، وكأن عملية السرد في حد ذاتها وسيلة منه للتخفف من وطأة الإحساس بالذنب.

بالنسبة للشخصيات الواردة في الومضة، هناك شخصيتان وهما المتهم الظاهري والراوي الذي يمثل متهما حقيقيا، سواء أكان متهما في الجريمة المتهم بها المتهم الظاهري أم متورطا في عدم تبرئته لسبب ما.

أما الوجوه الأخرى الحاضرة ضمنيا في الومضة: القاضي وجميع الحضور بقاعة المحكمة فهم ليسوا بشخصيات، وإنما تم إيرادهم فقط لتجسيد المكان الذي يدور فيه الحدث، ألا وهو قاعة المحكمة، وللإيحاء بزمن الحدث أيضا، وهو زمن نهاري، فالقضايا الجنائية في الأساس يتم تداولها نهارا.

وبالنسبة لأسلوب السرد والمنظور السردي، الومضة مروية هنا بضمير المتكلم، فالراوي مشارك في الحدث. وبالرغم من أن هذا الضمير يجعل معظم المنظّرين وعلماء السرد يقولون بأنه يجعل المنظور العام منظورا داخليا، لا أرى منظورا داخليا هنا، فكل شيء وارد في الومضة يمكن لأي ملاحظ خارجي افتراضي موجود في مكان الحدث أن يلاحظ كل ما يحدث في الومضة وينقله لنا كاملا، الأمر الذي يجعل السرد بضمير المتكلم غير مقترن بالمنظور الداخلي.

وشكل الومضة هنا يعزز مضمونها، فهي تبدأ بكلام الشخصية وتنتهي به، وكأن كون هذه الشخصية لها الكلمة الأولى والأخيرة في الومضة يؤكد على براءة الشخصية من التهمة المنسوبة إليها.

والنص بشكله الحالي أقرب للقصة القصيرة جدا، فما بين الإشارة والتقاء العينين فترة زمانية ممتدة ولو قليلا. وأظن أنه لو استخدم الكاتب "بينما" بدلا من "عندما" وغيّر

ما يلزم سيقتصر الزمن على لحظة واحدة يمكن التقاطها بفلاش كاميرا فوتوغرافية.

أما النصان التاليان لعصام الشريف أيضا فهما قصتان قصيرتان جدا:

مصير

أوحي لكل أحد أنه في صفه، ألقى خطابه عن النصر، ظن كل واحد أنه المقصود.

فقد

أحنيت رأسي حتى تمر العاصفة، وعندما مرت، كنت قد فقدت رأسي.

ففي "مصير"، ما بين الإيحاء والإلقاء فترة زمنية ممتدة، كما أن إلقاء الخطاب ذاته يستغرق وقتا، بالإضافة إلى أن النص ذاته يلح على توصيل الفكرة في المقام الأول. أما بالنسبة لومضة "فقد"، فصياغتها الحالية عبارة عن قصة قصيرة جدا، مع أن الموقف ذاته موقف وامض، وكان

بالإمكان تحويلها بسهولة إلى ومضة قصصية، لأن اللحظة الأساسية فيها هي فقدان الرأس التي تم إحناؤها، وكان من الممكن تقديم ما سبق على أنه تابع لهذه اللحظة في الصياغة: أي أن يتصدر المشهد لقطة فقد الرأس وتأتي العاصفة تابعة لكلمة "عندما" أو "بعدما": "بعدما مرت العاصفة، فقدتُ رأسي التي أحنيتها حتّى تمرّ." أو: "رأسي التي أحنيتها لتمرَّ العاصفة فقدتُها بعدها".